

مرجعيات الجرجاني النقدية

أ. النوي مليكة
قسم اللغة العربية
جامعة قلمة

ملخص :

لم يكن الجرجاني ناقدا بالصدفة، ولم تكن أحكامه النقدية نابعة من فراغ. إنما صدرت أحكامه عن نظرة متكاملة جمعت الأدب والبلاغة والنقد والنحو والموسيقى، لأنه ينظر إلى الظاهرة الأدبية على أنها شبكة متداخلة من العلاقات، وللوقوف على هذه العلاقات ومعرفة أيها أكثر تأثيرا في الظاهرة الأدبية، لابد أن ينهل الجرجاني من منابع متعددة. فكانت له وقفات مع التراث بشعره ونثره، ولتكتمل الصورة أبحر مع الآيات القرآنية محاولا استكشاف سر إعجازها، جامعا في دراسته بين الجدل المنطقي والذوق الرفيع ليقنع ويمتع، وهكذا تعددت مرجعيات الجرجاني النقدية، فمن المرجعية التراثية، إلى المرجعية الدينية إلى المرجعية الفلسفية.

Résumé:

La critique d'Eldjorjani n'a pas été fortuite et ses jugements sont fondés.

L'Eldjorjani voit dans le phénomène littéraire un réseau de relations ayant pour but la reconnaissance de ces relations.

حظي التفكير النقدي عند العرب باهتمام كبير، وصنفت فيه المصنفات، أخرج فيها أصحابها زبدهم العقلي، وأصالتهم الفكرية، رغبة منهم لدفع عجلة التراث، والتعريف بالمخزون الفكري والثقافي للعرب، وكم كان إسهامهم كبيرا، وكم كان فضلهم على الدراسات الحديثة البلاغية منها والنقدية واللغوية، فأتروا بذلك الحقل الأدبي. وفي ظل القرآن الكريم ترعرع درس النحوي وكذا النقدي، فتعددت الآراء حول تفسير بعض آي القرآن، وإعراب بعض الكلمات، ولكل حجته ودليله، وفي هذا المناخ الخصب والثري بالجدل والنقاش، كان الجرجاني قد عاد للتراث والقرآن والفلسفة باحثا فيما قاله السلف شارحا ومعلقا ومضيفا. فكانت هذه المرجعيات:

المرجعية التراثية: عصور النقد ما قبل الجرجاني مثلت تاريخا نقديا متحركا، إلا أن حركته بطيئة لم تواكب الإبداع الأدبي، كما أنها لم تخضع لمنهج نقدي معين. فبين الإبطائية في العصر الجاهلي، إلى اعتبار الأخلاق معيارا للنقد في العصر الإسلامي، في حين أن تلاقح الأفكار بين العرب والعجم كان له أثره على النقد في العصر العباسي، حيث مال إلى التعقيد واعتماد الموضوعية.

وقد عرفت العصور السابقة للجرجاني محاولات في النقد مع اختلاف المدارس والاتجاهات، فمن الأصمعي إلى ابن سلام، وابن قتيبة وابن المعتز وقدماء.... مسيرة طويلة عرفها الفكر النقدي قبل أن يحط الرحال في القرن الخامس الهجري، مع شيخ من شيوخ البلاغة والنحو العربي إنه عبد القاهر الجرجاني، الذي صال وجال بين العصور، استنطق النقاد قبله، حاور فكرهم، وعاد محملا بفكر يحتاج إلى تمحيص وغربلة. فكانت وفقته عند هذا الموروث اللغوي والبلاغي والنقدي وفقه عالم متذوق استطاع أن ينظر للبيان العربي وللصورة الفنية، مرتكزا على بحوث سابقه ارتكاز مجد لا مقلد، فمعالجته للصورة الفنية اختلفت عن نظرة الجاحظ والمبرد وابن المعتز، وابن جني، فكانت نظريته للمجاز مرتبطة بنظرة الإعجاب الفطرية في النفس الإنسانية، فتذوق الجمال في أي عمل لا يمكن ربطه بثقافة المتذوق وحدها. لأن الذوق هبة الخالق للمخلوق، ولكنه يحتاج للمران. وأكد على دور النحو في الكشف عن جماليات النص، ولكنه (من اللافت للنظر أن

ناقدا لا يقصد بقواعد النحو هنا هذه القواعد في حد ذاتها، بل الآثار التي تنشأ عن هذا من معانٍ ودلالات كحديثه عن التقديم والتأخير والوصل والفصل...¹

ولم يكن الجرجاني أول من قال بدور النحو في جمال النظم، فقد أورد في كتابه "دلائل الإعجاز" فضل سيبويه حين تناول الحذف ودوره في النظم (وهذا الذي قد ذكرت من أن تقديم ذكر المحدث عنه يفيد التنبيه له قد ذكره صاحب "الكتاب" في المفعول إذا قُدِّم فُرِّع بالابتداء، وبُني الفعل كان له عليه، وعُدِّي إلى ضميره فشُغِّل به كقولنا في "ضربت عبد الله" عبدُ الله ضربته، فقال: وإنما قلنا عبدُ الله فنبهته به ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء)² فعبدُ الله في المثال الأول نصبت لأنها سبقت بفعل متعَدٍّ ضرب فاحتاج إلى المفعول وهو "عبد الله" أما في المثال الثاني فقد تقدم عبدُ الله، واتصل الفعل بضمير الهاء "ضربته" فكانت الهاء مفعولا به وهذا الضمير قام مقام عبد الله المحذوف، وجمال المثال في تفادي التكرار حتى لا نقول: عبدُ الله ضربت عبدُ الله. فالنظم عند الجرجاني لا يتحقق بتطبيق قواعد النحو الصارمة. فإعجاز القرآن والمتمثل في دقة نظمه، ربطه الجرجاني باللغة والبلاغة والنحو، وهذه العناصر مجتمعة بقدر ما تجعل النص محكما بقدر ما تجعله مؤثرا. وللمعرفة بهذه العناصر لابد من الاستجداد بالتراث، والارتقاء في أحضان الثقافة العربية الإسلامية، وهذا ما فعله الجرجاني، فوقفته عند الآيات القرآنية لم تكن وقفة مفسِّر، وإنما وقفة ناقد نحوي أراد البرهنة على صحة ما وصل إليه في نظرية النظم. وأصالة الجرجاني الفكرية بطلاقة تعريف له، حيث شهد له نقاد العصر الحديث بذلك فقال محمد مندور: (فإن أحدا - فيما نظن - لا ينكر مدى الأصالة الفكرية التي جعلت عبد القاهر الجرجاني يتبوأ مكانة سامية في موروثنا الفكري، سواء علمه باللغة، أو كونه ناقدا بجوانب حياة الأدب كافة)³ فقد نظر إلى التراث بعين العقل إلى كل ما يخدم الإعجاز، فكتب عن الشعر والشعراء، والنحو والبلاغة، ونقل عن أعلام الفكر والنقد، واستدل بمقولة الجاحظ (والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والقروي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وصحة الطبع، وكثرة الماء وجودة السبك)⁴

فاللفظ لا يحمل الفضيلة في نفسه، بل إن جمال اللفظ وقبحه مرتبط بالسياق، وأن السياق لا يحدد الجمال بنفسه، ولكن يتحقق الجمال بقدره الكاتب على النظم الفني الجمالي

(وهذا باب واسع فإنك تجد متى شئت الرجلين قد استعملا كلمًا بأعيانهما، ثم ترى هذا قرع السماك، وترى ذلك لصق بالحضيض، فإذا كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب في ذلك حال مع أخواتها المجاورات لها في النظم، لما اختلف بها الحال ولكانت إما أن تحسن أبداً أو لا تحسن أبداً)⁵

فالجرجاني لم يقف عند التراث موقف المصدق المقدس، ولكن موقف الناقد الممحس لتلك الأقوال، معتمداً في أحكامه على ذوقه المتمرس. كما تمثل بأبيات شعرية لكثير من الشعراء، فنقل عن المشهورين كجريد والبحري وأبي تمام والمتنبي. ففي حديثه عن الألفاظ التي تبدو مقبولة في موضع، ومستكرهة في موضع آخر مثل بيت المتنبي، والذي وظف فيه لفظه "شيء"

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوقه شيء عن الدوران

يقول الجرجاني (ومن أعجب ذلك لفظة "الشيء" فإنك تراها مقبولة حسنة في

موضع، وضعيفة مستكرهة في موضع)⁶ وقال عنها في بيت المتنبي (فإنك تراها تقل وتضؤل)

فألفاظ القرآن مألوفة عند العرب ومتداولة، إذاً ليس فيها شيء من الإعجاز، وعليه فإعجازها في نظمها، فبالنظم اكتسبت الألفاظ معاني، ولولاه لظلت الألفاظ ضائعة حائرة.

ومن براعة الجرجاني أنه نظر إلى أبيات أبي الحسن الأنباري في رثائه لابن بقية حين صلب (وما صنع فيها من السحر حتى قلب جملة ما يُستنكر من أحوال المصلوب إلى خلافها، وتناول فيها تأويلات أراك فيها وبها ما يقضى منه العجب)⁷

بحق أنت إحدى المعجزات علو في الحياة وفي الممات

وفودُ نذاك أيام الصّلات كأن الناس حولك حين قاموا

وكلهم قيام للصلاة كأنك قائم فيهم خطيباً

كمدهما إليهم بالهبات مددت يديك نحوهم احتفاء

يضم علاك من بعد الممات ولما ضاق بطن الأرض عن أن

عن الأكفان ثوب السافيات⁸ أصاروا الجو قبرك واستنابوا

فهذا السحر الذي يراه الجرجاني في هذه الأبيات لا يشعر به أيًا كان، لأنه أدرك أن جمال الألفاظ في سياقها، وقوتها في تضامها، وسحرها في استبطناتها لدلالات، فعظمة ابن بقية عندما صلب كعظمته وهو حي، فالوفود من حواليه وكأنه خطيب في الصلاة، ويداه ممدودتان وكأنه يوزع الهبات، فلما ضاقت الأرض أن تضم قبره، حملته الريح ليكون عاليًا في حياته وبعد مماته.

وهكذا نستنتج أن الرجل يؤكد عبر محطات "الدلائل" الغاية والمقصد هو تعريفنا بالوسائل والعلامات التي تساعد على فهم الإعجاز. لذا لابد أن تكون الوسائل محلية غير مستوردة (وكان التقليد فيها أحب إليك) دعوة للاجتهاد حتى لا يكون الباحث في تبعية عبياء لمن قبله (والتعويل على علم غيرك أثر لديك) فعلم الغير قد يقصد به الفكر اليوناني والذي كانت ملامحه واضحة في العصر العباسي بعد اختلاط الأجناس.

المرجعية الحديثة: حظيت قضية إعجاز القرآن الكريم باهتمام الدارسين والنقاد قبل عصر الجرجاني وفي عصره وبعد عصره. فقال النظام بالصرفة، أي أن الله لو لم يصرف العباد لأتوا بمثل القرآن، وقال الجاحظ بالصرفة، ولكنه يرى أن الله صرف العباد إشفاقًا، أما الرماني فأرجع سبب الإعجاز ما حواه القرآن من أمور غيبية، أما الخطابي فقال بالإعجاز النفسي، إضافة إلى الإخبار بالغيوب، أما الباقلاني فقال بأمية الرسول صلى الله عليه وسلم وبالنظم وبالإخبار بالغيوب، أما عبد القاهر الجرجاني فقد اعتمد النظم في إعجاز القرآن، ولم يكن مصطلح النظم جديدًا عند الجرجاني، ولكنه خلاصة للفكر النقدي قبله، إذ يرى الجرجاني أن العرب أولو فصاحة وبلاغة وبيان فما سر التميز بين لغة العرب ولغة القرآن؟ ويفك اللغز بأن سر إعجاز القرآن في نظمه إذ يقول (فخبرونا عنهم عما إذا عجزوا؟ أعن معان في دقة معانيه وحسنها وصحتها في العقول؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه؟ فإن قلتم عن الألفاظ، فماذا أعجزهم من اللفظ أم ما بهرهم منه؟ فقلنا: أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه)⁹. وكان للدراسات الإعجازية دور في تحول النقد، إذ أصبح النص القرآني الشاهد الأول على صحة الكلام، فدعا النقاد إلى توخي الدقة في استعمال الألفاظ للدلالة على المعاني التي تراد لها، لأن وظيفة اللغة تجاوزت التواصل إلى الوظيفة الجمالية (فاللغة هي المنظمة الاجتماعية الكبرى التي لا يمكن أن تؤدي وظيفتها إلا إذا تكامل كل أنظمتها)¹⁰

فاللغة جملة من المستويات: الدراسة الصوتية "الفونيتيكا والفونولوجيا" والدراسة المعجمية "القاموسية" والدراسة الصرفية "المورفيمات" والدراسة النحوية (فالألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب)¹¹. فتأكيد الجرجاني على النظم محاولة منه لاستكناه سرّ تعالق الألفاظ بالنص، لأن الكلمة تستحضر عشرات النصوص، لتأخذ في كل نص معاني جديدة بفضل النحو والذي هو أساس النظم عند الجرجاني (فالنحو قواعد ومعان كل لا يتجزأ)¹² وهذا ما دعا إليه الجرجاني وهو رفضه للأخذ بالظاهر والتأكيد على اعتماد العقل والجدل (وهو بذلك يرجع الفضل للمعاني المأخوذة من تطبيق القواعد النحوية، لا من مجرد المعنى الذي يفهم من اللفظ، والأمثلة في كتاب الدلائل منثورة بكثرة لمن أراد مزيدا من مواضع النقد التي تعتمد على أحكام علم النحو)¹³. فالنحو عند الجرجاني يجري في النظم مجرى الدم من العروق، وأن انقطاعه يعني فساد النظم بل موته، ولم يكن الدفاع بأقوال نظرية، بل كان مدعما بشواهد من آي القرآن الكريم فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالصيد﴾ يقول الجرجاني (فإن أحدا لا يشك في امتناع الفعل هاهنا وأن قولنا: كلبهم يبسط ذراعيه، لا يؤدي الغرض وليس ذلك إلا لأن الفعل يقتضي مزاوله وتجدد الصفة في الوقت ...) ¹⁴. فالفعل مرتبط بالتجدد فلو قال: "يبسط" لانتفت صفة الثبوت، لأن المقصود إظهار هيئة الكلب، فاعتمد على اسم الفاعل "باسط" ليكون الوصف دقيقا والتعبير بليغا، والمعنى أصاب الهدف المقصود، فهذه الفلسفة النحوية للجرجاني جذورها متشابكة مع قضايا نقدية كثيرة، وإن كان النحو في نظر الجرجاني يمثل دقة النظم وجماله، فإن عمل الإعراب يأخذ منحنيات مختلفة تمثل في نهاية المطاف الرسم المطلوب وتحقيق الهدف، فقيمة الإعراب التعبيري يحدده النسق والنمط والصوت صياغة وأداء، أو بالصوت وحده يقوم به المتكلم أو القارئ.¹⁵

وإذا كان الجرجاني قد ربط إعجاز القرآن بالنظم، فإن جمال النظم تحدده قواعد النحو وأحكامه، فبفضله تتحد أجزاء الكلام، ويتم ترتيبه في النفس قبل النطق به، وتمكن المبدع من أحكام النحو يجعله يخرج عن المعهود، فيعمد للتقديم والتأخير والحذف والإضمار والقصر والغرابة والتخييل، وبذلك لم يعد المبدع عند الجرجاني مقيدا بالصدق والحقيقة، بل يمكنه أن يسبح في عوالم طلاقة يبني ما أراد بناءه بعيدا عن الواقع متسلحا

بالمجاز، وعليه فإن (الغربة تحتاج إلى متملق يمتلك معرفة وخبرة ودربة حتى يتمكن من محاوره ظاهرة الغربة، بما تفتح من آفاق للتأويل والقراءة المتأنية، إذ أن الغربة والوقوف على فعاليتها لا تتأتى لأي متملق، وإنما للذي له ذهن ونظر يرتفع بهما عن طبقة العامة، لأن التلقي بحد ذاته يدخل في إطار المتعة الجمالية).¹⁶

ومن الأبيات التي أعجب بها الجرجاني لما حوته من غربة وغموض قول زياد الأعجم :

وإنما وما تلقي لنا إن هجوتنا لكالبحر مهما يلق في البحر يغرق

فالببيت يحتمل عدة قراءات: وهو أن صبرنا وإيماننا بقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ لَكُمْ اللَّهُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة البقرة 219 يجعلنا نغض النظر عن هؤلاء الذين ليس لهم من عمل سوى محاولة التعرض للآخرين بأسنتهم، لأننا نتطلع للفوز بجزاء الصابرين يوم القيامة، واحتمال آخر هو أن عدم اهتمامنا بما يقال عنا يجعلنا نسمو ونعلو في نظر الآخرين، لتكون نفوسنا في سعتها كبحر مهما يلق فيه يغرق وفي ذلك عفو وما العفو إلا جود وكرم. أما الجرجاني فقد علّق على البيت بقوله (وإنما كان أعجب لأن عمله أدق، وطريقه أغمض، ووجه المشابكة فيه أغرب)¹⁷ وما هذا الإعجاب من الجرجاني إلا ليجعل القارئ شريكا للمبدع في رؤاه حين حبذ الغربة وبذلك فتح باب التأويل.

أما إعراب التركيب فقد اعتمد فيه على أشعار العرب وأقوالهم، واستخلص منها القواعد والضوابط التي تحكم التراكيب، وقد نسب إلى الإمام علي(ض) قوله (الكلام كله اسم وفعل وحرف، والاسم: ما أنبأ عن المسمى، والفعل: ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف: ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل، والفاعل مرفوع وما سواه ملحق به، والمفعول منصوب وما سواه ملحق به، والمضاف إليه مجرور وما سواه ملحق به)¹⁸ وقد أرجع معظم الدارسين وضع أسس النحو العربي إلى أبي الأسود الدؤلي، ومن هؤلاء: عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت 276 هـ) وأبو العباس المبرد (ت 285 هـ) وأبو الطيب اللغوي (ت 351 هـ) وأبو سعيد السيرافي (ت 368 هـ) وابن النديم (ت 380 هـ) .

ومن أسباب وضع الضوابط وتقنين قواعد النحو نجد: الزيغ الذي طرأ على ألسنة العرب، والخطأ في تلاوة القرآن الكريم، وذلك بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الأمم

الأعجمية. فنشأة النحو مرتبطة بالحاجة إلى حفظ القرآن من التحريف، وإلى فهم النص القرآني ومعرفة ما تؤديه التراكيب القرآنية. فأبو الأسود لم يكتف بضبط أواخر الكلمات، بل شمل الشكل بنية الكلمة (فقولك: مضرب مثلا يختلف معناه بكسر الميم وضمها وفتحها، مع فتح الراء وكسرها، أو تشديدها وفتح الضاد)¹⁹. وبذلك فجر القرآن الكريم الطاقات الفكرية للمهتمين بالإعجاز، فحددوا الوظائف التركيبية والمعاني النحوية، والعلاقات الإعرابية للعبارة فتناولت الدراسة الجمل وإعرابها. لتتعدد التأويلات وظهر الخلاف ليتحول إلى صراع فكري بين الشيعة والسنة سببه التفسير بغير علم، يقول الجرجاني (ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم أن يتوهموا أبداً في الألفاظ الموضوععة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها فيفسدوا المعنى بذلك، ويبطلوا الغرض ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة وبمكان الشرف).²⁰

فالتعامل مع النص القرآني يحتاج إلى معرفة بلغة العرب، وإلى اطلاع واسع على أصول النحو، وكأنني بالجرجاني يدعو إلى الإعراب التحليلي لتحديد المعاني الحقيقية والمجازية، وما تأكيده على النظم إلا دليل على تلك العلاقات التي تربط المفردات كما تربط الجمل. ويضرب الجرجاني لذلك أمثلة كثيرة، منها هذا البيت لأبي تمام:

لُعاب الأفاعي القاتلات لُعابه وأرْيُ الجنَى إشتارته أيدِ عواسل

(فإنك إذا قدرت أن "لعاب الأفاعي" مبتدأ و"لعابه" خبر كما يوهمه الظاهر أفسدت عليه كلامه وأبطلت الصورة التي أرادها فيه).²¹ وعَلَّقَ الجرجاني على البيت بأن أبا تمام قصد تشبيه مداد قلمه إذا خاض في السياسة بلعاب الأفاعي، أما إذا كتب عن العطايا فمداد قلمه أري الجنى أي العسل وهذا الغرض لا يتحقق إلا إذا كان "لعاب الأفاعي" خبراً مقدماً ومضافاً إليه، و"لعابه" مبتدأ مؤخرًا والضمير مضافاً إليه.²² فالمعنى حدده السياق وقد ساعد الإعراب التحليلي على فهم البيت، وتقديمه بهذه الصورة الجمالية للقارئ. يقول السيوطي (اعلم أن اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه، أما النحوي فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوي و يقيس عليه)²³. ليكون دور النحوي إثراء النص بإضافات وتعليقات تفتح مغالقه، وتكشف المناطق النائية فيه. لذا فقد علّق الجرجاني على العلاقة بين

معاني النحو والنظم بقوله: (فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا، وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو).²⁴

ليسط النحو أجنحته على دلائل الإعجاز - لفظا وأثرا - (فترى لكل من رام الأدب وابتغى الشرف وطلب محاسن القول والفعل، منارا مرفوعا، وعلمنا منصوبا، وهاديا مرشدا، ومعلما مسددا، وتجد فيه للنائي عن طلب المآثر، والزاهد في اكتساب المحامد داعيا ومحرضا وباعثا ومحضضا، ومذكرا ومعرفا وواعظا ومتقفا).²⁵ فالفقرة عكست فلسفة عبد القاهر النحوية في اعتماده مصطلحات هذا العلم - النحو - في قوله: - القول. الفعل - مرفوعا - منصوبا. الطلب (أمر-نهي) محضضا (أسلوب التحضيض - معرفا) فبالنحو كان الضم و كان النظم، لأن نظام العلامات اللغوي يركز على الكل، ويتحقق الكل بالجزء، فقد وصف عبد القاهر لفظة "اشتعل" في قوله تعالى: ﴿ واشتعل الرأس شيبا ﴾ أنها في أعلى مراتب الفصاحة (لم توجب تلك الفصاحة لها وحدها، ولكن موصولا بها الرأس معرفا بالآلف واللام، ومقرونا إليها الشيب منكرا منصوبا)²⁶ فالقرآن معجز بكليته، والنص عند الجرجاني عالم دلائل. فنظرية النظم اهتمت بالنص من الداخل وتركت سلطة النحو تكشف المعنى، وتخلق الإبداعية والجمال.

المرجعية الفلسفية: إن نظرة عبد القاهر للفظ والمعنى لم تكن نظرة عادية ولا تقليدية، ولكنها نظرة ناقد مزج اللغة بالفلسفة والنحو بالمنطق (وليت شعري هل كانت الألفاظ إلا من أجل المعاني؟ وهل هي إلا خدم لها ومصرفة على حكمها؟ أو ليست هي سمات لها، وأوضاعا قد وضعت لتدل عليها، فكيف يتصور أن تسبق المعاني، وأن تتقدمها في تصور النفس؟ إن جاز ذلك جاز أن تكون أسامي الأشياء قد وضعت قبل أن عرفت الأشياء...).²⁷

فعبد القاهر ألغى ثنائية اللفظ والمعنى، وأقر بسلطة النص (إذ أدرك صاحب الدلائل أن النقد محتاج إلى فلسفة لغوية نابعة من الشعر، وأدرك أن السبيل إلى ذلك هو إعادة النظر في التراث النحوي)²⁸.

ففرق بين "أصول النحو" و"علم النحو". أما "أصول النحو" فهي ضوابط وقواعد اللغة، في حين أن "علم النحو" والذي حاول الجرجاني أن يؤسس له، فيقوم على معرفة الخصائص الفنية في الكلام والتي تسمى عند الجرجاني "بالنظم" وقد خصص عبد القاهر في كتاب

"الدلائل" فصولا تناول فيها الفروق الأسلوبية المتعلقة بنظام الكلمات أو تركيب العبارات. وبما أن عبد القاهر من الأشاعرة، وهم فرقة من المتكلمين فإن ما يقوم عليه علم الكلام في بنيته الأساسية هو الجدل لتأويل النصوص، والتمتعن في "دلائل الإعجاز" يدرك ذلك الجدل الذي كان يفترضه الجرجاني، بوجود متكلم يسمعه ويحاوره (واعلم أنها قد تدخل للدلالة أن الظن قد كان منك أيها المتكلم في الذي كان أنه لا يكون...) ²⁹ بل إن طريقة عرضه للفكرة يطغى عليها الأسلوب الفلسفي الذي يمتاز بالغموض (في الذي كان أنه لا يكون).

فهذه الفرضيات عند عبد القاهر تعكس فكرا فلسفيا جعل أحكامه منطقية، بل دلت تقسيماته في أسرار البلاغة أن الجدل طريقه للمعرفة (اعلم أن الذي يوجبه ظاهر الأمر أن نبداً بجملة من القول في الحقيقة والمجاز، ونتبع ذلك القول في التشبيه والتمثيل ثم ننسق ذكر الاستعارة عليهما ونأتي بها في أثرهما، وذلك أن المجاز أعم من الاستعارة والواجب أن نبداً بالعام ثم الخاص ...) ³⁰

وما هذه الفروق الدقيقة التي يجعلها عبد القاهر بين المجاز والاستعارة والتشبيه والكناية إلا دليل على ملكة ناقد متميز أدرك بذوق متفرد كيف يميز بين أسلوب وأسلوب. إن هذا الناقد ما كان له ليعتمد الذوق دون ثقافة، فكانت الثقافة الدينية الملبسة بلباس المتكلمين وسيلته، مع تأثره بزخم الحياة الفكرية في عصره، هذا العصر الذي فيه (التبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة، بحيث لا يتميز أحد الفئتين من الآخر... ومن أراد إدخال الرد على الفلاسفة في عقائده فعليه بكتب الغزالي والإمام ابن الخطيب فإنها وإن وقع فيها مخالفة للإصطلاح القديم فليس فيها من الإختلاط في المسائل والإلتباس في الموضوع ما في طريقة هؤلاء المتأخرين من بعدهم) ³¹ وهذه شهادة من ابن خلدون أن الغزالي ومن كان قبله لم يقفوا في هذه الإلتباس الذي وقع فيه المتأخرون، وهذا دلالة على أن التأثير الفلسفي وإن كان أثره على الأوائل إلا أنه تمكن من الأواخر، ويرى الدكتور طه حسين أن ترجمة كتاب الخطابة لأرسطو في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري كان له أثره على البيان العربي خاصة في كتابي نقد الشعر، ونقد النثر لقدامة بن جعفر، فالبيان العربي المتأثر بكتاب الخطابة سيطر عليه الأسلوب الفلسفي وهذا ما عبر عنه الدكتور السيد نوفل: (يستطيع الباحث أن يقرر مطمئناً أن نشأة البلاغة كانت عربية، لكنه لا يستطيع أن ينكر أن

العنصر الأجنبي قد اتصل بها، فأخذ يؤثر في تطورها ويبعدها عن الطريقة الأدبية العربية وسيطر عليها، حتى إذا اشتد سلطان هذا العنصر صارت فلسفة خاصة على أيدي السكاكي وأصحابه³² ويقرر عبد المنعم خفاجي أن عبد القاهر استفاد من الفلسفة اليونانية عن طريق اطلاعه على الترجمات (ويظهر في الأسرار والدلائل بلاغة أرسطو المترجمة في كتابي الخطابة والشعر اللذين ترجمهما ابن سينا في الشفاء وترجمهما غيره، وقد اقتبس عبد القاهر هذه الترجمات وتأثر بها)³³ والمطلع على كتاب "الحيوان" يجد إقراراً من الجاحظ بإطلاعه على كتاب أرسطو وأقليدس وغيرهما (وها هنا كتب هي بيننا وبينكم، مثل كتاب أقليدس ومثل كتاب جالينوس... وكتب كثيرة لا تحصى، فيها بلاغ للناس)³⁴ فالجاحظ يشير إلى أن الكتب الأجنبية كان لها إنتشار في زمنه، فاستفاد الناس منها المواعظ والعبر، كما استفادوا العلوم والفنون (ألا ترى أن كتاب المنطق الذي قد وسم بهذا الاسم لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب لما فهموا أكثره؟ وفي كتاب أقليدس كلام يدور، وهو عربي، وقد صفي ولو سمعه بعض الخطباء لما فهمه، ولا يمكن أن يفهمه من يريد تعليمه لأنه يحتاج إلى أن يكون قد عرف جهة الأمر، وتعود اللفظ المنطقي الذي استخرج من جميع الكلام)³⁵ وليس المقام هنا هو تعريف القارئ بتأثر الجاحظ بالفكر اليوناني وغيره، وإنما الغرض أن نوضح أن الجرجاني قد استفاد من الجاحظ وأخذ منه لتبقى مرجعيته تدور في فلك التراث لا غير. هذا ويرى الفلاسفة والمناطق العرب أن المشكلات الفلسفية لا يمكن فهمها ما لم يتم توضيح المصطلحات الفلسفية، والتي تعتمد بدورها على اللغة لنرى تلك العلاقة بين اللغة والفلسفة أو فيما يعبر عنه بفلسفة اللغة، وهكذا يجد الفيلسوف نفسه في بحر اللغة مستنجداً بها لفك طلاسم الكلمات، وفي ذلك يقول الفارابي في تعريف "العرض" (عند جمهور العرب، يقال على كل ما كان نافعا في هذا الحياة فقط... وقد يقال أيضا على كل ما توافقت أسباب كونه أو فساده القريبة، فإنه يقال فيه إنه يعرض كذا أو إنه قريب من أن يوجد... أما في الفلسفة فإن العرض يقال على كل صفة وصف بها أمر، ولم تكن الصفة محمولا على موضوع، أو لم يكن المحمول داخلا في ماهية الموضوع أصلا)³⁶ واستدل بقوله تعالى: ﴿تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم﴾ سورة الأنفال الآية 67

فالأموال عرض لأن مصيرها الزوال، لنرى أن المعنى اللغوي يختلف عن المعنى الفلسفي ومع هذا فإن العلوم بحاجة إلى أن تتكامل كما يكمل الناس بعضهم بعضاً، وهذه طبيعة تفرضها الحياة (إن حاجة بعض الناس إلى بعض صفة لازمة في طبائعهم، وخلقة قائمة في جواهرهم، وثابتة لا تزالهم)³⁷.

وهذا ما طبقه الجرجاني حين استعان بمصطلحات فلسفية منها مصطلح "العرض والجوهر" وكان هدفه لغوي لا فلسفياً (هو أن الإعتبار بمعرفة مدلول العبارات لا بمعرفة العبارات)³⁸ وهو ما عبر عنه دوسوسير بالعلاقة اللسانية والتي تتكون من الدال والمدلول، أي الصورة السمعية والتصور الذهني وينطق الفلاسفة يناقش عبد القاهر أفكاراً لغوية وأدبية من ذلك نقده لأولئك الذين يدعون أن الألفاظ سابقة للمعاني (كيف يتصور أن تسبق المعاني؟ وأن تتقدمها في تصور النفس؟ إن جاز ذلك جاز أن تكون أسامي الأشياء قد وضعت قبل أن عرفت الأشياء، وقبل أن كانت، وما أدري ما أقول في شيء يجر الزاهبين إليه إلى أشباه هذا من فنون المحال، ورديء الأقوال)³⁹.

فعبد القاهر في طريقه إلى الإعجاز اعتمد الجدل، محتذياً طريق المتكلمين، وإن كان لم يتناول في الدلائل صفات الله كما فعل المتكلمون، ولكن كان كل همه أن يثبت وعلى طريقة المتكلمين الجدلية المنطقية - التي تعكس فلسفة لغوية عظيمة لهذا الرجل الفذ - وجوه الإعجاز، والمتمعن في الدلائل يدرك تأكيد الجرجاني على النحو الذي بدت بصماته على جل الكتاب، فكانت رحلة الدلائل ممتعة، ومتعتها عكسها التنوع في تناول دور النحو من جوانب عدة، فمنه النحو والنظم إلى النحو والبلاغة إلى النحو والمنطق. مسيرة طويلة قطعها التفكير النقدي للجرجاني في الدلائل، عاد فيها للذاكرة متصفحاً التراث تارة ومستعيناً بما أوتي من ذوق تارة أخرى، عله يصل إلى الهدف الذي سطر طريقه من البداية إنه هدف إثبات إعجاز القرآن الكريم. إذ أخذ من التراث ما يمكنه من خدمة فكرة الإعجاز، حيث توقف عند شخصيات في النقد والبلاغة واللغة والنحو والشعر... ولكنه لم يشر أن استقى معرفته من الثقافة اليونانية، مع أنه في حديثه عن الشعر يستخدم مصطلحات اعتمدها أرسطو (فقد رأيناه حين يريد توضيح طبيعة الشعر يجلب الرسم والتصوير النفسي وصياغة الجواهر، على نحو ما يفعل أرسطو في هذه النقطة)⁴⁰.

والمطلع على كتابات الجاحظ يجده قد عرف الشعر بأنه (صياغة وضرب من التصوير)⁴¹ وهذا الكلام أثبتته الجرجاني في كتاب الدلائل، فلم لا يكون عبد القاهر قد تأثر بالجاحظ في هذه المصطلحات؟ والسؤال الذي يطرح نفسه إذا كان بعض الدارسين يرون أن عبد القاهر قد نقل بعض الأفكار نقلاً مباشراً عن عن الفيلسوف الاغريقي "أرسطو"، وتأثر بالثقافة اليونانية، فما الذي منعه أن يذكر أرسطو وغيره من الفلاسفة اليونان؟ سؤال مهم ومحير.

فإذا علمنا أن عبد القاهر في "الدلائل" انطلق من فكرة دينية، هي أوجه الإعجاز في القرآن، فعلى أي أساس يوظف الفكر اليوناني بوثنيتته، على فكرة محورها ديني إسلامي (فأنظر أي رجل تكون إذا أنت زهدت في أن تعرف حجة الله تعالى وآثرت فيه الجهل على العلم، وعدم الاستبانة على وجودها، وكان التقليد فيها أحب إليك، والتعويل على علم غيرك أثر لديك)⁴² فدعوته إلى رفض التقليد، وعدم التعويل على علم الغير لدليل على روح الأصالة عند الجرجاني والتي ترفض كل ما تراه دخيلاً على التراث العربي الأصيل. ضف إلى ذلك أن النقد والنحو وعلوم البلاغة واللغة والأدب، بلغت مرحلة النضج في القرن الخامس الهجري ساعدت عبد القاهر وغيره على البحث ضمن دائرة الفكر العربي وبالرؤية العربية، وهناك احتمال آخر وهو عدم توفر الكتب اليونانية في المنطقة التي وجد بها الجرجاني، على أن الطبيعة وهبت الجرجاني فكراً متوقداً، وذوقاً عالياً، وحساً مرهفاً، وأمدته البيئة بثقافة عالية، كل هذا مكن الرجل أن يتجول في رحاب القرآن الكريم بالمعطيات المحلية دون حاجة إلى استيراد الفكر الآخر لخدم فكرته، وقد تكون تلك هي الرؤية التي انطلق منها الجرجاني ليكون كتابه "دلائل الإعجاز" خالياً من أي أثر للفكر اليوناني.

وإذا كان عبد القاهر بنظرته الثاقبة، وعقله الراجح، وما أوتي من بلاغة وبيان، لم يشعر بنقص وهو ينهل من نفس الوعاء الذي كان له الفضل في ملئه، فكيف يشعر بهذا الشعور إن نهل من وعاء غيره؟ هذا إذا افترضنا أنه تأثر بالفكر اليوناني ولكنه استحي من التصريح لشعوره بالنقص أو العجز عن مجازاة الفكر اليوناني. ومهما قيل عن بلاغة الإغريق وعن بيانهم وفكرهم إلا أنه لا يرقى لبلاغة القرآن وبيانه وأفكاره، فكان الأولى

الأخذ بالأجود بدل الجيد وهذا ما طبقه الجرجاني في "الدلائل"، إذ جعل مسرح فكره ينتقل بين القرآن والحديث، وبين الشعر والنثر، مستشهداً أو ناقداً لأعلام الفكر العربي وشعرائه دون أن تكون إشارة واحدة بالتصريح أو التلميح للفكر اليوناني. أما الذين استشهدوا بوجود ألفاظ فلسفية في كتاب "الدلائل" واحتجوا بأنها دليل على تأثره بالفكر اليوناني يرد عليهم الجرجاني (وجوابنا مثل جواب المتكلمين وهو أن الإعتبار بمعرفة مدلول العبارات لا بمعرفة العبارات)⁴³ فاللفظة المفردة لها معنى في ذاتها، ولها معنى تكتسبه من السياق إضافة إلى أن الألفاظ مشاعة بين الجميع وهذا ما يقرره عبد القاهر (وها هنا أمر عجيب، وهو أنه معلوم لكل من نظر أن الألفاظ من حيث هي ألفاظ وكلم ونطق لسان لا تختص بواحد دون آخر)⁴⁴ وتعد فكرة تأثير الفكر اليوناني في التفكير النقدي للجرجاني من القضايا التي شغلت الدارسين في العصر الحديث، فقد خلص طه حسين إلى أن البلاغي الكبير كان (فيلسوفاً يجيد شرح أرسطو ويدافع عنه)⁴⁵ أما عبد العزيز حمودة والذي انتصر للتراث ولكنه انتصار الباحث الذي يحاول ربط الحاضر بالماضي فيرى (أن نظرية النظم كما قررها عبد القاهر الجرجاني، قد فكر فيها داخل الحقل المعرفي البياني، فوظف معطيات هذا الحقل، مستجيباً لإهتماماته، معبراً عن مرحلة من مراحل نموه، نمو وعيه بالذات، أما المنطق اليوناني فلم يكن له أثر في هذه النظرية)⁴⁶ ويؤكد هذه النظرة عبد العزيز حمودة الذي حاول التأصيل للتراث ولل فكر العربي من خلال التنقيب في هذا التراث، واستخراج مكنوناته، والتعريف بأعلامه، وإضاءة زواياه بعد عصور العتمة، لتعرف الأجيال اللاحقة ما كان لأبائهم وأجدادهم من إرث فكري ومجد حضاري، وهكذا تبقى حلقات السلسلة مشدودة مترابطة تعكس هذا التواصل في شتى حقول المعرفة، ومن ذلك نظرية النظم في الفكر العربي (جاءت هذه النظرية تتويجا لتيار فكري نشأ وتطور وأخذ يتبلور ويتميز من خلال طرح نفسه بما هو "أنا" عربي إسلامي بياني، بديل عن "الآخر" اليوناني الدخيل)⁴⁷ فالدراسات العربية القديمة حاولت تأصيل منهج نقدي، فمثلاً وجدنا الجرجاني تناول الحرف المنفرد والمؤتلف، كما تناول اللفظ والمعنى لينتهي إلى النظم موضحاً سبب التفاوت بين نظم ونظم، وأسلوب وأسلوب، وهذا ما جعله يؤكد على النحو، وعلى البلاغة، ويفتح باب

الحقل اللغوي ليكون مرآة عاكسة لصفاء التفكير العربي عامة والتفكير النقدي عند الجرجاني خاصة.

الخاتمة: بعد هذه الرحلة الممتعة بمعية الجرجاني ومرجعياته النقدية فإن ما يمكن استخلاصه أن عبد القاهر لم يكن من الخائضين في مجال الإعجاز دون زاد يعتمده ولا دليل يستند إليه، ولم يكن من المتكلمين الذين حاولوا تنزيه الخالق عن صفات النقص والذين عبر عنهم الجنيد رحمه الله بهذا الأسلوب الساخر (نفي العيب حيث يستحيل العيب عيب)⁴⁸. بل حاول عبد القاهر وبفلسفة لغوية أن يجمع بين الإقناع والإمتاع، إقناع بالجدل والمنطق، وإمتاع بطريقة العرض والأسلوب، لأن النقد عنده لا يعترف بالقوالب الجاهزة، ولكنه يعترف بالمدارس والمران، فالمران يفتح الأبواب المغلقة، ويدفع بالناقد المبحر في النصوص إلى الوصول للمناطق النائية، وذلك باعتماد المراوغة والتي تحتاج إلى فلسفة خاصة بالناقد، وقد حقق عبد القاهر في "الدلائل" معادلة صعبة بإلغائه ثنائية اللفظ والمعنى، وخروجه بالنحو من المفهوم التقليدي، وهكذا قدم قراءة جديدة لكثير من الفكر النقدية، والتي أصبحت كتابا مفتوحا لكل ناقد أراد أن يأخذ وأن يضيف، بل إن نشأة الجرجاني المزدوجة بين النحو وبين علم الكلام جعل تقاطعا بين خطابه النحوي وبين الفلسفة، ويتجلى ذلك واضحا كما أشرنا لطريقة تأليفه "أسرار البلاغة" حيث عمد إلى تقسيمات وتفرعات هي من شأن الخطاب الفلسفي، وبفكره الجدلي جعل اللغة خاضعة لعلم الكلام. وذلك باعتماد الحجج والضوابط والتعليقات التي تبرر رفع الكلمة أو نصبها أو جرها فألف كتاب "العوامل المئة" والتي قسمت إلى لفظية ومعنوية.

كل هذا يجعلنا نقر بأن عقل الجرجاني جمع بين الفلسفة الكلامية وبين اللغة من خلال الفكر العربي الإسلامي.

- 1 - د. عثمان موافي. دراسات في النقد العربي. دار المعرفة الجامعية 2002 ص 210 .
- 2 - عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز تح محمد الدنجي ط 3 دار الكتاب العربي لبنان 1999. ص 112.
- 3 - د احمد دهمان الصروة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني ج 2 ط 1 دار طلاس دمشق سوريا 86. ص 843.
- 4 - عبد القاهر الجرجاني دلائل الاعجاز ص 198.
- 5 - المرجع نفسه ص 54.
- 6 - المرجع نفسه ص 55.
- 7 - عبد القاهر الجرجاني أسرار البلاغة تح محمد رشيد رضا دار المعارف بيروت لبنان 1978 ص 300.
- 8 - المرجع نفسه ص 300.
- 9 - عبد القاهر الجرجاني دلائل الاعجاز ص 49-50.
- 10 - نمام حسان . اللغة بين المعيارية والوصفية. عالم الكتب القاهرة 2001 ص 171.
- 11 - عبد القاهر الجرجاني أسرار البلاغة ص 2.
- 12 - فؤاد علي مخيمر مخيمر . فلسفة عبد القاهر الجرجاني النحوية في الدلائل دار الثقافة مصر 83 ص 142.
- 13 - المرجع نفسه. ص 145.
- 14 - عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص 144.
- 15 - د. فخر الدين قباوة. مشكلة العامل النحوي ونظرية الاقتضاء. دار الفكر دمشق 2003 ص 42.
- 16 - رباعية موسى. الغرابة عند عبد القاهر الجرجاني. مجلة جذور ع 5 النادي الثقافي الادبي جدة 01 ص 40-41.
- 17 - عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص 89.
- 18 - د. فخر الدين قباوة. مشكلة العامل النحوي ونظرية الاقتضاء. ص 48.
- 19 - المرجع نفسه ص 48.
- 20 - عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز. ص 235
- 21 - المرجع نفسه. ص 280.
- 22 - المرجع نفسه. ص 280
- 23 - أبو حامد الغزالي . إحياء علوم الدين ط 1 1975 ص 113.
- 24 - عبد القاهر الجرجاني . دلائل الإعجاز ص 78.
- 25 - المرجع نفسه . ص 32.
- 26 - المرجع نفسه. ص 299.
- 27 - المرجع نفسه ص 303.
- 28 - مصطفى ناصف . النحو الشعر . قراءة في دلائل الإعجاز. مجلة عالم الفكر ج 1 ع 3 أبريل 1981 ص 35 .
- 29 - عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص 251.
- 30 - عبد القاهر . أسرار البلاغة ص 36
- 31 - عبد الرحمان بن خلدون تاريخ ابن خلدون ص 389.
- 32 - د. سيد نوفر . البلاغة العربية في دور نشأتها . مكتبة النهضة 1984 ص 52.
- 33 - القول في أسرار البلاغة. لعبد المنعم خفاجي . ص 49-50.
- 34 - الجاحظ - كتاب الحيوان ج 1 ط 1. دار صعب بيروت 1968 ص 58 .
- 35 - لمرجع نفسه ص 63
- 36 - محمود فهمي زيدان - في فلسفة اللغة - دار النهضة العربية للطباعة والنشر 1985 ص 158 .
- 37 - الجاحظ كتاب الحيوان ط 1 ج 1 دار الصعب بيروت 1968 ص 36 .
- 38 - عبد القاهر الجرجاني الدلائل ط 3 دار الكتاب العربي بيروت 1999 ص 308 .
- 39 - المرجع نفسه ص 308 .
- 40 - أحمد أحمد بدوي - عبد القاهر الجرجاني و جهوده في البلاغة العربية - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ط 2 ، 96 ص 313.
- 41 - عبد القاهر الجرجاني الدلائل ص 198 .
- 42 - عبد القاهر الجرجاني - الدلائل ص 27 .
- 43 - عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز 308.
- 44 - المرجع نفسه ص 343 .
- 45 - د/ عبد العزيز حمودة - المراسم المقرة ص 216 .
- 46 - محمد عابد الجابري مجلة فصول ع 1 م 6 أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر. 1985 . ص 40 .
- 47 - د عبد العزيز حمودة - المراسم المقرة - مطابع الوطنية الكويت 2001 ص 217.
- 48 - عبد الرحمان بن خلدون - تاريخ ابن خلدون ج 1 دار العلم للجميع بيروت لبنان.